دولة بنى الأحمر فى غرناطة

٦٢٦ ـ ٨٩٧ هـ / ١٢٣٢ ـ ١٤٩٢ م

دكتور / محمود عبد الفتاح شرف الدين
استاذ التاريخ الاسلامى المساعد بالكلية

تمهيد :

ان أصل بنى الأحمر من أرجونة (١) ويعرفون ببنى نصر الذين ينتسلون من ولد زعيم الخزرج الصحابى سعد بن عبادة • وكان كبير هذه الأسرة على أرض الأندلس على عهد الموحدين محمد بن يوسف بن نصر • وهو مؤسس دولتهم الحقيقى • وقد عرف بين قومه بالشيخ (٢) ولقد مرت غرناطة بالأدوار نفسها التى مر بها تاريخ الاسلام فى تلك المنطقة • فحكمها أولاً الأمويون • ثم استقل بها فى عصر ملوك الطوائف ـ زعماء صنهاجة ـ ثم اصبحت تابعه لنفوذ الموحدين بعد المرابطين •

وقد شاءت بها القلاقل والاضطرابات الأمر الذى مكن بنى الأحمر أن يؤسسوا دولتهم وأن يوطدوا دعائمها على أسس ركينة • وقد ظهر محمد بن قيس الخزرجى المشهور بابن الأحمر فى امارة أرجونة وتحصن بحصونها وبويع فى رمضان سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٣٢ م واتخذ لقب

---

(١) فى غرب الأندلس ولها بساتين وثمار وبزاتها خيار البزاة ومن مدنها باجة وهى أرقى زرع وضرع •

(٢) ابن خلدون • العبر ج ٤ ص ١٧١ •

السلطنة واحاط نفسه بعظمة الملك وأقام مملكة قوية لبنت على ركائز الزمن « قرنين ونصف القرن » شهدت جانبا فائقا من سيادة الاسلام وحضارته ونضارته • وأن تقف فى صمود يحسب لها فى مواجهة مسيحى أسبانيا الى أن كلت يداها وضعفت قواها فوقعت فريسة وسط معقلها الحصين — غرناطة — وكان لها ثواب الشهداء •

محمد بن يوسف النصرى :

اتخذ محمد بن يوسف المشهور بالأحمر سلطان هذه الدولة من حصن الحمراء مقرا له وقوى الأسوار القديمة وزاد فى ابراجها • ثم حفظ القصر (٣) الذى كانت نواته فى البقعة التى يشغلها اليوم قصر شارل الخامس (٤) وقد مد ابن الأحمر فتوحاته الى أن وصلت املاكه الى وادى آش جيان (٥) كما واجه قوات ابن هود الجذامى التى أرادت اجتياح مدينة أرجونة واستخلاصها له فباء ابن هود بالفشل وعاد خاسرا (٦) •

---

(٣) قصر الحمراء فى غرناطة آية من آيات الابداع الفنى والروعة الهندسية آخر باق ينطق بما كان للعرب فى الأندلس من ماض تليد وأمجاد غابرة ، لقد بنى حوله سور غطى بالمرمر وموهت حيطانه بالزخرف الذهبى البديع وزينت بالأشكال المصبوبة ذات الهندسة العربية الفائقة •

(٤) د• محمد عبد العزيز مرزوق • قصر الحمراء ص ٢٥ •

(٥) جيان بين غرناطة وطليطلة وهى من أكثر مدن الأندلس خصبا ومن مدنها آش وآبده ولها عين تسمى الزعفران •

(٦) المقرى • نفح الطيب جـ ١ ص ٤٤٧•

وفى بداية أمر ابن الأحمر لم يشغله سوى سيف الدولة ابن هود صاحب سرقسطة ــ قاعدة الثغر الأعلى بالبلاد ــ وكانت المنافسة بينهما شديدة الأمر الذى جعل كلا منهما يحاول ان يتحالف مع ملك قشتالة « فرناند الثالث » لمؤازرته فى مواجهة نظيره الذى يتربص به• وسط هذه المعادلة المتأرجحة استفاد الملك القشتالى من هذا الصراع المناسب بين ابناء العمومة الذين لم يهمهم غير تحقيق مصالحهم •

« فابن الأحمر حالف فرناند الثالث ليعاونه على اسقاط ابن هود • والأخير قدم ضمانات للملك المسيحى للغرض نفسه ثلاثين حصنا فى أرض المسلمين ــ ليؤازره على منافسه ابن الأحمر • وقامت حرب داخلية انشغل الاميران المسلمان بها • وكانت تلك فرصة للمسيحيين الذين اقتحموا بقواتهم مدينة قرطبة ــ عاصمة الأمويين ــ فى جمادى الأولى سنة ٦٣٣ هـ / ١٢٣٦ م كما سقطت بلنسية فى أيديهم بعد سنتين من دخولهم قرطبة •

كما صارت لهم « مرسية » بجوار جبل آيل ــ سنة ٦٤٣ هـ / ١٢٤٦ م • وبعد حصار شديد وأزمة طاحنة حلت بمدينة اشبيلية ــ عروس قرطبة ــ فعجزت عن الصمود واستسلمت سنة ٦٤٥ هـ / ١٢٤٨ م •

وهكذا عمل المسيحيون ــ ظاهرا ــ على اسقاط ابن هود والواقع انهم استغلوا الموقف كله لصالحهم ومد كانت معونتهم لابن الأحمر واتجاههم بثقلهم نحوه الا ليجعلوا لهم خصما واحدا بدل اثنين • وكان لابن الأحمر وبنيه الا أن ينعموا بهذه المساعدة ويقطفوا ثمارها (٧)•

---

(٧) المرجع السابق ج ١ ص ٤٥٠ •

لم يتحرك ابن هود اثناء هذه الأحداث منشغلا بما تحت يده ولم يفكر فى التصدى للمهاجمين • وكان ذلك تتويجا لابن الأحمر فى بسط سلطانه على ممالك الأراك وجيان وغرناطة سنة ٦٣٤ هـ / ١٢٣٦ م كما ضم مالقه والمريه التى قيل ان فى ضواحيها قتل ابن هود (٨) بعد ان حاول المقاومة • ولكن بعد فوات الآوان والذى سهل من مهمه ابن الأحمر ابتعاد القوم فيها عن ابن هود وتسليمهم مقاليد الأمور فى تلك الممالك له وقد اتجهوا نحوه بالطاعة والاخلاص •

مملكة غرناطة المتألقة :

وبعد انفراد محمد بن يوسف — ابن الأحمر — بالنفوذ اتخذ العديد من الاصلاحات والأنجازات التى تنعم بخيرها الرعية الذين آزروه واحبوه من ذلك اتخاذه مدينة « غرناطة » مقرا لحكمه ولقب نفسه « الغالب بالله » واصبحت هى العاصمة بدلا من مدينة « المرية » وقد كان طبيعيا بعد ذلك ان يتقدم فيها العمران • وان تتسع رقعتها وان تمتد أبنيتها الى مسافات بعيدة حتى اتصلت بالحمراء وأحاطت بها واصبحت جزءا منها (٩) •

وقد شيد الغالب بالله — ابن الأحمر — قصر الحمراء وقصبتها على ربوة عالية فى سيرا نفادة • على مسافة خمسة وثلاثين مدنا • والذى أطل بوجهه الحضارى على المدينة المعقل الرئيسى (١٠) ويقول عنه شهود عيان « قصر العظمة وبيت الجلال ومعجزة الفن والمثل الأعلى للصناعة العربية وقصارى ما أبدعته يد الفنان وأقصى ما وصلت

---

(٨) ابن الخطيب الاحاطة فى أخبار غرناطة جـ ٢ ص ٦٢ •

(٩) د• مرزوق مرجع سابق ص ٢٥ •

(١٠) كان ابن الأحمر يطلق على عماله اسم « أصحاب المعاقل » •

اليه صناعة الانسان أطلت منه الحضارة العربية فبداخله أبراج مربعة تكتنفها قباب دكناء • وفى المواجهة قاعة « بيت القضاه » وهى حجرة فسيحة الأرجاء يجلس فيها السلطان مع ذوى الرأى من رجالات الدولة للنظر فى الدعاوى والظلامات أرضها من الرخام ونقوشها غاية فى الاتقان وسقفها مكون من ثلاثة آلاف قطعة وصل بعضها ببعض بمهارة عجيبة يخالها الرائى قطعة واحدة • وعلى الجانب الآخر قاعة الأسر وهى توصل الى حجرة تعرف بصحن البركة فيها بحيرة جميلة وفى وسطها تماثيل أسود تقذف المياه من أفواهها • هذا فضلا عن قاعة الخلافة التى يعلوها الوقار وتكسوها المهابة قد زينت بمختلف القبب وزخرفت بأبدع النقوش المموهة بالذهب • ولعل ابدع ما فى هذا القصر ذلك البهو المسمى بمقصورة السباع على روضة تيس فى استطاعة الانسان ان يزجى وصفها ولو أتى فصاحة سحبان • والبهو تخاله غابة بديعة من الأعمدة الدقيقة يتناثر خلالها رشاش الماء من فوارة السباع تناثر الشرر اذ اندلع به لسان اللهب وعلى حافة هذه الفوارة تماثيل السباع التى لم تحكم عرا الشبه بينها وبين السباع الحقيقية لان صانعها راعى ما نهى عنه الدين به اقامه التماثيل المجسمة للكائنات الحية » (١١) •

---

(١١) ابن الخطيب اللمحة البدرية فى الدولة النصرية ص ٤١ ـ ٤٢ حسن مراد • تاريخ الأندلس ص ١٥٤ أما اسم المدينة « الحمراء » فأغلب الظن انه انبعث من لون ترتبها الذى يميل الى الاحمرار بسبب كثرة أكسيد الحديد فى هذه التربة • ولما كان ملاط ابنيتها قد اتخذ من هذه التربة فقد غلب عليه اللون الأحمر الذى أطلقه العرب على هذه البقعة » دكتور عبد العزيز مرزوق • قصر الحمراء ص ٢٢ •

أما مالقة فقد اعلنت ولاءها وتبعيتها لبنى الأحمر مؤثرة السلامة وعلى أن يظل حظها فى أن تكون فى اطار المملكة الفتية الجديدة التى أنشئت فى غرناطة (١٢) وكانت تلك الدولة تمتد من جيان وبياسة حتى البحر وشرقا حتى المرسية (١٣) وغربا حتى مصب الوادى الكبير ويشق وسطها بلطف وروعة نهرا شنيل والدارو (١٤) وقد امتدت أيادى ابن الأحمر « ابن يوسف النصرى » الى سبل الانجازات ونظم الانشطة المدنية والأعمال العمرانية هذا فضلا عما توفر لديه من سجايا التبسط والميل الى التقشف وازينت مملكته بطابع الفخامة والعظمة حتى بدت فى أعين الناس مهيبة قوية محصنة لا يؤثر فى تلك القوة مصانعته لفرديناند القشتالى فى عقد ابرم سنة ٦٤٣ هـ وملخص بوده التى كانت على هيئة « مبادلات مصالح » من ذلك :

(أ) ايقاف أعمال الحرب بين القوتين مدة عشرين سنة فى مقابل أن يتنازل ابن الأحمر عن مدينتى جيان وأرجونه .

(ب) ان يبذل الأمير لفرديناند مائة وخمسين ألف دينار ذهبى . ويحق لابن الأحمر بمقتضى ذلك العقد حضور مجالس الملك داخل البلاط القشتالى أو فى أى مدينة يتم عقد الاجتماع فيه . وتصبح كل طرف منزما بما فى الصحيفة وفق بنود الأتفاق المعلن (١٥) .

---

(١٢) ابن الخطيب . الاحطة جـ ٢ ص ٩٢ .

(١٣) بياسة قرب طليطلة وغرب مرسية وطرطوشة . أما المرسية فهى اسلامية محدثة بنيت فى أيام الأمويين الأندلسيين كثيرة المنارة والبساتين التى من أهمها المسماة « الرشاقة وآيل » .

(١٤) ابن خلدون المرجع السابق جـ ٤ ص ١٧٦ .

(١٥) استانلى لينبول . العرب فى أسبانيا ص ١٨٥ .

وقد تميزت شخصية ابن الأحمر القادرة بالمرونة والذكاء والحنكة فقد جنب مملكته — التى ثبت أركانها — كثيرا من الحروب والخطوب واستعاد بأوقات السلم فى اصلاح العمل الصيرفى وحمل على ارباب بغوغائية وقضى على المفسدين والمتاجرين بالاقوات • ونظم أمر الجيش والشرطة وجعل على قيادتهما من ونق بولائه من اقربائه وقضى على الكثير من المظالم بعد أن طهر اركان الدواوين واعلى من شأن العلماء والقضاه وقد برز فى هذا العصر الشيخ أبو بكر الزبيدى الذى اختصر كتاب العين للخليل وفى التفسير نبغ محمد بن مكى بن أبى طالب القرطبى صاحب الثبت القيم « الهداية فى بلوغ النهاية » • وقد اشتغل بكتب الصحاح الستة فى الحديث فى مسجد غرناطة الجامع • كما بذل ابن الأحمر الأموال الكثيرة لجمع الكتب التى جاء بها من مدن المشرق لتكون بين يدى العلماء والمصنفين والنابهين من رجال العصر (١٦) •

تسلمت مدن دولة بنى الأحمر من الفتن والاضطرابات فى عهد محمد بن يوسف الذى سماه معاصروه الشيخ لتواضعه • وابن الخطيب يصوره بمعالم وملامح غاية فى التبسط جعلت القلوب تلتف حوله فيقول عنه : كان هذا السلطان آيه فى السذاجة والسلامة عظيم التجاد رافضا للدعة والراحة مؤثرا القشف بعيدا عن التصنع والاكتفاء باليسير متبلغا بالقليل شديد الحزم • فظا فى طلب الحق لابسا الخشن ويؤثر التبدى فى أحواله (١٧)

وفاته :

وبعد عمر مديد — يقارب الثمانين سنة — توفى الغالب بالله ابن الأحمر « أبو عبد الله بن نصر » فى جمادى الآخرة سنة ٦٧٢ هـ يناير

---

(١٦) مجمل تاريخ أدب الأندلس • أحمد الاسكندرى ص ٢٨٧ •

(١٧) اللمحة البدرية ص ٤٣ •

سنة١٢٧٣م فقد حان أجله اثناء حملة تأديبية كان على رأسها فشعر بوكاه الحمى فى جسده فى طريق عودته الا ان القدر لم يمهله الى أن يعود الى غرناطة فحمل على محفة بواسطة جنده الذين ادخلوه الى المدينة فى مشهد حزين ودفن فى اليوم الثالث من وفاته بالقرب من قصره الذى بناه فى حياته على ربا منطقه « سيرا نفاده » المشرفة على مدينة غرناطة (١٨) .

عصر محمد الثانى :

وبعد وفاة محمد بن يوسف سليل بنى نصر خلفه فى حكم البلاد ابنه المسمى محمد الثانى المعروف بالفقيه والذى استمرت ولايته نحوا من ثلاثين سنة (٦٧١ — ٧٠١ هـ / ١٢٧٣ — ١٣٠٣ م) الذى كان مكتمل المواهب السياسية . حسن التدبير قوى الشكيمة تمرس الحكم والادارة ايام أبيه على الرغم من ميوله الأدبية وحبه المعارف وتفرده بعلوم الدين حتى لقبوه بالفقيه (١٩) فسطع أنجم الأدباء والاديبات الذين لقوا الحظوه عند هذا الأمير الذى واصلهم جميعا بعطاياه وشجعهم بشتى الوان العون الذى فجر ينابيع الشعر وأزهر صنوف العلوم اللسانية والدينية والكونية فظهرت مواهب ابن فرج الحيانى صاحب الحدائق وأبو عبد الرحمن بن مخلد صاحب التفسير الكبير كما ظهر الموشح الكبير الذى نظم العديد من الموشحات المعروف بابن سهل بن مالك الذى اظهر البدائع ورائق المعانى . كما نبغت مهجة بنت عبد الرازق الغرناطية التى قالت :

---

(١٨) ابن الخطيب . أعمال الاعمال ص ٥٤ .

(١٩) ابن خلدون العبر ج ٤ ص ١٧٢ .

ولما أبى الواشون الا فراقنا ومالهم عندى وعندك من نار

وشنوا على اسماعنا كل غاره وقل حماتى عند ذاك وانصارى (٢٠)

وعلى الجملة فقد كان محمد الفقيه عالما اديبا ناصر العلوم والآداب وسادت فى أيامه المجالس العلمية والمناظرات الجدلية حتى شاع أمره فى المدن وسعت اليه الركائب وتراحمت على طلبه كل الراغبين فى العلماء وتلامذتهم سعيا لهذا المقصد الذى اصبح سمة بارزة لهذا العصر الجديد (٢١) وأيام محمد الثانى المشرقة بأنوار العلوم لم تخل من الاضطرابات وسط تجار الطموح والوثوب الذين كان ظهورهم فى الساحة تبعا لمكاسبهم • فكان عليه للوقوف فى وجه بنى اشقيلولة — فى مالقه ووادى آش — الذين كانوا مصدر قلق للمملكة • ان يستنصر• اما بامارة قشتالة المسيحية نظير تنازلات ومصانعات سياسية ومالية أو أن يمد يده الى بنى جلدته العرب فى المغرب الاقصى من بنى مرين• وعندما وجد محمد الفقيه هذه الشروط القشتالية للتحالف معه مجحفة به • صرف النظر عن امكانية الاستعانة بهم فى مؤازرتهم له • وساء الحال عندما هاجم القشتاليون غرناطة بقيادة « جونز الين » • فاستنجد محمد الفقيه سلطان البلاد بحلفائه من بنى مرين • فكانوا خير معين له فى مواجهة هؤلاء الأعداء الذين لم يحترموا العهود والمواثيق (٢٢) وعرف انها صداقة واهنة تلك التى سجلت فى عهد والده الغالب لله • الا أنه بمساعدة ابناء المغرب الأقصى •

---

(٢٠) المقرى ، نفح الطيب ج ٢ ص ٣٢٧ ، أحمد الاسكندرى مرجع سابق ص ٢٨٧ •

(٢١) ابن خلدون مرجع سابق ج ٤ ص ١٧٣ •

استطاعت جيوش غرناطة ان تحقق الانتصارات وطردت فلول المهاجمين وردتهم على اعقابهم • فكان نصرا مبينا بحق حيث كان على رأس المجاهدين الزناتيين أبو زيان ابن يوسف يعقوب • وكانت ملحمة مجيدة تضاف فى السجل العسكرى الى مثيلاتها التى جرت على أرض الأندلس مثل الزلاقة والأراك (٢٣) والتقت قوات المسلمين التى تكونت من جند غرناطه والمدد الذى جاءها من المرينيين ووقع اللقاء بينها وبين قوات مملكة قشتالة فى ١٥ من ربيع الأول سنة ٦٧٤ هـ / سبتمبر ١٢٧٥ م عند استجة — جنوبى قرطبة — وقد استعد المسلمون للمعركة استعدادا عظيما • وقاد مقدمة الجيش الاسلامى ولى عهد بنى مرين الأمير يوسف « أبى زيان » ابن أبى يوسف • وتحمس المسلمون وانقضوا على القوات النصرانية فى حماس بالغ فتحقق لهم النصر ومزقوا قوات قشتالة شر ممزق • وتقدموا يحاصرون اشبيلية — غربى قرطبة — على أمل استعادتها فاسرع الملك « الفونسو العاشر يطلب الصلح فأجيب اليه (٢٤) وبعد هذه المعاهدة التى فرضتها الظروف القاسية التى عاشت فيها المملكة المسيحية قشتالة • استطاعت غرناطة بعدها ان تنعم فى ظلال السلم مدة أحدى عشرة سنة • عرفت المناطق جملة من المشاريع العمرانية ومحاسن فى المعايش جمة • واصلاحات

---

(٢٢) المصدر السابق ص ١٨١ وبنى مرين ينتمون الى قبيلة زناتة الشهيرة فى تاريخ المغرب العربى •

(٢٣) موقعة الزلاقة انتصر فيها يوسف بن ناشفين الأمير المرابطى على الملك المسيحى الفونسى السادس فى ١٢ رجب سنة ٤٨١هـ اكتوبر ١٠٨٦م • أما ملحمة الأراك فقد انتصر فيها أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدى على قوات مسيحى البرتغال بقيادة « الفونسو الثامن » فى التاسع من شهر شعبان سنة ٥٩١هـ •

(٢٤) د• حسين مؤنس معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٨٦ •

الطرق وتعبيد الممرات للسابلة والتجـار ورعايتها بالمـدارس ورجال الشرطـة • فتمتعت غرناطة فى تلك السـنوات الرغيـدة بالرفاهية والانتعاش فى مجالات العلوم والفنون والصناعات وشـملت تنظيم الجباية والصيرفة وأحوال الدواوين وادارة الأعمال والولايات التابعة للمملكة (٢٥) •

وكما خرج محمد الفقية منتصرا فى معاركه • سجلت له صفحات الحوليات انجازات ضخمة فى التشجيع العلمى — فوق ما قدمناه — حتى أصبحت المساجد مركز اشعاع للعلوم الدينية واللغوية ودراسة الشعر وعلم العروض • وقد نلت مملكته فى عهده شهرة جذبت اليهـا محول الأدباء ومصابيح النهضات فى كل من الأندلس والمغـرب ومن سائر البقاع • قد حفظ لنا المقرى اسم الطبيب المعلم المشهور المسمى محمد بن ابراهيم الانصـارى « ابن السراج » الذى ألف المصنفات الطبية المهمة فى العلاج وتصنيف الدواء وله اجتهـاداته فى بابه حتى ذاع اسمه فقربه محمـد الفقيه وجعله من طب الخواص فى القصر له ولجميع أهله (٢٦) •

وفاة محمد الفقيـه :

وقد توفى الملك النابه محمد الفقيه فى ألق مجده وساطع شهرته فى الثانى من شهر شعبان سنة ٧٠١ هـ / ١٣٠٢ م بعد أن ترك وراءه قوة عسـكرية معتبره وحركـة علمية دائبـة جعلت غـرناطة فى أوج الحضارة (٢٧) • وأخذت الحياة المدنية زخرفها وازينت بطابع الرخاء

---

(٢٥) ابن الخطيب اللمحة البدرية ص ٦٢

(٢٦) نفح الطيب جـ ١ ص ٢٤ ، ٢٥ •

(٢٧) المرجع السابق جـ ٣ ص ١٠٧ •

والنشاط وقد تلى هذا العصر عدد من الملوك ممن خمل ذكرهم وضعف شأنهم • فانصرفت عنهم العامة وسادت فتراتهم حاله مؤسفه من الاضطرابات والفتن والغموض الذى يكتنف الأحداث التى تجرى على الساحة السياسية الأمر الذى جعلهم يطلبون المدد والعون الخارجى لاثبات حكم أو دفع ضر • وتكاد تتشابك المواقف والظروف مع اختلاف الوجوه فى التعيين والتصريف والقيام والابعاد حتى غدت جنود قشتالة تتجرأ فى تحقيق العديد من الانتصارات • وتبعهم العامة فى التخلص من الملوك فى كل مرة • فقد اغتيل محمد الثالث المشهور بالمخلوع وكذلك كان مصير محمد الرابع اللذين قتلا عن طريق التآمر بالاغراق أو الأغتيال من المقربين من مجالسهما (٢٨) •

آخر فحول بنى الأحمر • أبى الحجاج يوسف :

اما ثالث عظماء ملوك غرناطة فهو أبو الحجاج يوسف بن اسماعيل الذى كان عاقلا حكيما وعادلا سديدا شجع العلم وقرب الفقهاء والأدباء ونصر المظلومين من قهر المتغلبة وانتصف لهم فى قضاياهم (٢٩) وقد حبى المولى أبا الحجاج بسطه فى الجسم ومنحه ذكاء غير محدود فاستخدمهما فى توطيد الملك ومتابعة الخارجين عليه بحسم وحزم • كما شجع على تكوين قوة قاهرة من متطوعة المغرب من بنى مرين — الذين كانت مملكته على وفاق مع امرائهم — وعسكره النظامين قد تلقوا تدريبا حسنا على المنازلات الحربية وعاشوا فى معسكرات مغلقة تحسبا لأى خطر مفاجىء • وهؤلاء المجاهدين كانت لهم رئاسة عامة

---

(٢٨) تفصيل ذلك اللمحة البدرية ص ٦٣ — ٩٠ •

(٢٩) ابن الخطيب • أعمال الاعمال ص ١٩٨ •

اطلق عليها اسم « مشيخة الغزاه » واهم رجالهم المسمى عبد الله أبو العلا المريني وأبى سعيد عثمان بن أبى العلا • وقد تنازلت لهم المناطق فى الجزيرة الخضراء ومالقه وبعض مراكز أخرى لكى تكون معابر ومراكز لهم فى الأندلس فيستطيعوا مواصلة عملهم الدينى والجهاد فى مناوأة الأعداء (٣٠) •

وعلى الرغم من تلك الجهود الموفقة من القوتين العربيتين — الغرناطية والمرينية — فى زمن أبى الحجاج يوسف بن نصر • ونظيره المغربى والمسمى أبى الحسن على بن عثمان الا انها قد فشلت فى مواجهة الخطر القشتالى فى معركة حاسمة شهدتها جزيرة طريف — غربى قرطبه — وذلك فى السابع من جمادى الأولى سنة ٧٤١ هـ / ١٣٤٠م حينما غزا الفرنجة تلك المنطقة السابقة وتجهزت قوات الأندلس المسلمين واستعدت بالمقاتلة والفرسان ودارت ملحمة خطيرة الوقائع مؤلمة التفاصيل حيث دارت الدائرة على المسلمين واكدت فشل تلك التجربة الجديدة التى وئدت وهى فى طليعه تكوينها « قوة مشيخة الغزاة » وحسمت المعركة بسقوط جزيرة طريف فى أيدى الأعداء وفرار السلطان المغربى — أبى الحسن عثمان — تجاه العدوه التى توصله الى بلاده — العدوة المغربية — وانسحب أبو الحجاج يوسف برجاله يجرون أذيال الخسران الأليم الى غرناطة • وكان من نتيجة تلك الموقعة الحاسمة قطع أحبال الأمل فى توحيد القوى فى بوتقة العمل الحربى الواحد بين المغرب والأندلس (٣١) •

---

(٣٠) المزيد من التفاصيل لهذه الخلايا التى تكورت حول هذا العصر من دولة بنى نصر يراجع د• مؤنس معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، لينبول • العرب فى أسبانيا ص ١٨٧ •

(٣١) ابن الخطيب • اللمحة البدرية ص ١٠٦ •

وبعد تلك المواجهات الحربية مع مملكة قشتالة والتى حسمت لصالحها باستيلائها على جزيرتى طريف • والخضراء نعمت غرناطه وتوابعها بأركان السلم وشهدت الأجهزة الحكومية وأفراد المجتمع بأسباب النعماء والرقى وارتفاع مستوى المعايش بالقضاء على المشاكل الداخلية • واستفاد أبو الحجاج من جهود الرجل الكفء علامة عصره لسان الدين بن الخطيب (٣٢) الذى قلده سره واسلم اليه الوزاره وأمرة الدولة فكانت له منزلة طيبة عنده حيث اسهم بدور ايجابى أيام المحنة عندما هجم على السلطان بعض أفراد أسرته يريدون اغتصاب الحكم فسار ابن الخطيب الى أفريقيا (المغرب) فى مصاحبة أبى الحجاج يوسف طالبين النجدة من بنى مرين • وعاد الرجلان مع عسكر المغاربة وتمكن الملك استعادة عرشه الذى تغلب عليه أفراد ينتسبون الى بنى الأحمر وحاولوا أن ينحوه عنه عنوة (٣٣) •

وانصرف « بدر الملوك » كما يسميه ابن الخطيب الى تشجيع أرباب الثقافة ومحبى العلوم فى مملكته واستقبل وفود العلماءوالوجهاء الذين أتوا اليه يهنئونه باسترداد حقه فوصلهم جميعا واستبقاهم وعين العديد منهم فى حلقات المسجد الجامع بغرناطة فصلحت الاحوال ونامت الثقن وانصرف أبو الحجاج بقية عصره باسباغ روح التقدم والعمران من الوجهين العلمى والاقتصادى فجلبت النباتات والبذور من فجاج

---

(٣٢) المعروف بابن الخطيب السلمانى الغرناطى من رجال العلم والأدب فى الأندلس • وأشهر من عرف فى أواخر عصور العرب هناك بالأدب والفقه والفلسفة والطب وعلوم اللغة • ولد بمدينة غرناطة سنة ٧١٣هـ وشب بين العلماء وأخذ من كل علم طرفا وبرع فى كثير منها وألف فيها • فكان عالما وشاعرا وكاتبا ومتطببا •

(٣٣) ابن خلدون مرجع سابق جـ ٧ ص ٣٣٥ •

الأرض فتمت الزراعات كما ازدهرت الصناعات التى من أهمها النسيج والخزف المشهور بلمعانه بالبريق المعدنى هذا فضلا عن صناعة السيوف والروع والحفر على المعادن والخزف وازدهر فن العمارة فبرزت الاضافات المهمة على قصر الحمراء فى عهده سنة ٧٣٩ هـ شملت بعض القاعات والأبنية المقامة على الأعمدة والاقواس والعقود والتى كانت غاية فى الروعة والابداع والجلال (٣٤) ٠

وقد شعت فى جوانب غرناطة فى هذا العهد اسم الشاعرة نزهون بنت القلاعى التى كانت برزة حافظة للشعر عارفة بضرب الأمثال مع جمال فائق وحسن رائق ٠وقد كتبت فى كل الوان الشعر واغراضه وكان يغلب عليها خفة الروح والميل الى الدعابة وكانت شديدة السخرية بمن ينال من منزلتها فمن مواقفها التى تتناقلها كتب التراث ما ذكر وقد قدم أبو بكر المخزومى الأعمى على غرناطة وعندما دخل قصر الامارة استقر به المجلس وأفعمته ، روائح الند والعود والأزهار وهزت عطفه الأوتار قال :

دار السعيدى ذى أم دار رضوان	ما تشتهى النفس فيها حاضر دانى
سقت اباريقها للنـد سحب ندى	تحـدو برعـد لأوتار وعيدان
والبرق من كل دن ســاكب مطرا	يحيى به ميت افكار واشــجان

وكانت نزهون بنت القلاعى حاضرة ٠ فقالت : وتراك يا أستاذ قديم النعمة بمجمر ند وغناء وشراب فتعجب من تأتيه وتشبهه بنعيم الجنة وتقول : ما كان يعلم الا بالسماع ولا يبلغ اليه بالعيان ولكن من يجيىء من حصن المدور وينشا بين تيوس وبقر من اين له بمجالس النعيم ٠ فلما استوفت كلامها تنحنح الرجل المخزومى (الأعمى) فقالت

---

(٣٤) اللمحة البدرية ص ١٠٧ ، ليلبول مرجع سابق ص ١٨٩ ٠

له : ذبحه • فقال : من هذه الفاعلة ؟ فقالت عجوز مثل أمك • فقال : كذبت : ما هذا صوت عجوز وانما هي نغمة من امرأة تشم روائح ههنا على فراسخ • فقال الأمير : ياأستاذ هذه نزهون بنت القلاعي الشاعرة الأديبة • فقال سمعت بها • فقالت له : ياشبح سؤتنا وأي خير المرأة مثل ما ذكرت (٣٥) •

وفاة أبى الحجاج :

وبعد أن استمر حكم أبى الحجاج يوسف إحدى وعشرين سنه قتل سلطان غرناطة النجيب بالمسجد الجامع وهو يصلى فى صبيحة يوم عيد الفطر من سنة ٧٥٥ هـ / ١٣٥٩ م بعد حياة حافلة بألوان الاسهامات والأصلاحات كثيرة هذا الذى كمل بعقله وحكمته وعدالته ما يتمناه الناس منه من هدوء وراحة بال (٣٦) ولم يزد عجب القوم الذين نعموا جميعا فى عهده — بعدما عرفوا الفاعل المتورط انه رجل اصيب فى عقله فقبض عليه وسيق الى الجم من الناس بباب المسجد فقتلوه وأحرقوا جثته (٣٧) •

وهكذا انطوت صفحة متألقة من تاريخ غرناطة بعد اغتيال أبى الحجاج آخر فحول بنى الأحمر فى كمال فتوته وشبابه يقول معاصره والأنبس المقرب من مجالسه ابن الخطيب : هو بدر الملوك وزين الأمراء كان أبيض البشرة مليح القد كث اللحية عذب الكلام وافر العقل كثير النهبة كلفا بالمبانى والأثواب • جماعا للحلى والذخيرة مستميلا لمعاصريه من الملوك • وبموته انتهت أيام غرناطة البيضاء (٣٨) •

---

(٣٥) ابن الخطيب الاحاطة جـ ٥ ص ٤٧ •
(٣٦) اللمحة البدرية ص ١٠٧ •
(٣٧) المرجع السابق ص ١١٠ •
(٣٨) اللمحة البدرية ص ١٠٢ •

انشقاق فى الأسرة الواحـدة :

بعد مقتل أبى الحجاج يوسف اعقبـه على كرسى الحكم ابنـه « محمد الخامس » ـ الغنى بالله ـ فسار على نهج أبيه واستعان برجاله على عمله • فاستفاد من كاتبه ابن الخطيب واسند اليـه أمر الوزارة كما عين أبو النعيم رضوان القشتالى المسلم فى منصب الحجابة الرفيـع المنزلة • كما حرص على أن يقيم جسور المودة مع الممالك المجاورة وخاطب ملك قشتالة ـ بطرس الأول ـ فحمل اليه هداياه ضـمانا لعلاقات طيبة (٣٩) الا أن فترة الصفاء والأنتعاش الداخلى والخارجى لم تطل اذ خرج على السلطان أخوه لأبيه المسمى اسماعيل أثر تعيينه عن مقـر ملكه بعض الشئون • وسادت فى البلاد حالة من الاضطراب بعد هـذا الأغتصاب الجائر لحكم الغنى بالله الذى علم بهذه الاحداث المؤسفة فتوجه الى فاس بالمغرب متجرعا آلامه مستطلعا الأنباء واقام فيهـا ومن هناك علم بتخلص أخاه من رجاله المقربين وعلى راسهم حاجبه ابن رضوان بالقتل، وابن الخطيب بالاستبعاد والسجن (٤٠) •

الا أن مدة ابعاد السلطان لم تطل اذ ما كاد يستدير العام حتى قتـل اسماعيل فى ثورة داخلية وبتأثير من صديقى الغنى بالله • أبى سـالم المرينى • أمير المغرب الأقصى والملك بطرس الأول من قشتالة • وبعـد قتله عبر محمد الخامس البلدان والمفاوز ومياه البحر حتى عاد الى ملكه مرة أخرى مستعيدا سابق عزه ومنعته (٤١) فكأن عصر محمد الخامس الذى عاد الى غرناطة بعد « سنة الانشقاق » وحتى وفاته ينعم الناس فيه بكل سبل الهدوء والتقـدم وناصر أرباب العلوم والآداب حيث

---

(٣٩) ابن خلدون جـ ٧ ص ٣٣٢ •
(٤٠) المقرى نفح الطيب جـ ٥ ص ٨٤ •
(٤١) ابن الخطيب • اعمال الأعمال ص ٣٠٨ •

أنشأ مدرسة غرناطة والحدائق المعروفة ــ بجنة العريف ــ وزود المرافق الهامة من بديع صنع الفنان فى ردهات قصر الحمراء وغيرها من البنايات التى سجلت اسمه على جدرانه آية صدق على اهتمامه وتطبعه الموروث ويعزى اليه تلك النهضة الاصلاحية الشاملة • كما عقد العديد من معاهدات حسن الجوار مع أبى سالم المرينى وهدى التاسع (٤٢) •

كما مد رواق الصداقة مع سلاطين المماليك بمصر اذ تذكر المرويات « أن الغنى بالله انفذ كتابه المحرر بغرناطة سنة ٧٦٣ هـ الى السلطان المعظم ــ شعبان يهنئه فى مضمونه بانتصاره المؤكد على الصليبيين فى واقعة الاسكندرية ، وقد حملها شاعره الأشهر أبو عبد الله بن زمرك المقرب من وزير الحضرة لسان الدين الخطيب (٤٣)

أما سر احتفاظ السلطان الغنى بالله وزيره ابن الخطيب فيعود الى الحسد الذى داخل العديد من معاصرية وسعوا فى الايقاع به ووشوا الى محمد الخامس فقبض عليه واستولى على أمواله الى ان شفع فيه ملك المغرب المرينى سنة ٧٦١ هـ وعاد ابن الخطيب الى منصبه يسدى النصح والاخلاص غير أن بطانة السوء أخذت تكيد له ثانية • فاكفهر الجو بينه وبين الغنى بالله فأسرع الى المغرب لاجئا الى سلطان البلاد الذى أنزله منازل التكريم واحسن استقباله • وعاد الاعداء ليوشاية به واتهموه بالزندقة عند الغنى بالله فاوفد فى طلبه من أبى سالم المرينى • فقبض عليه واودع السجن فى مدينة فاس واشاعوا اتهامه بالكفر والخروج على الدين فقتل فى سجنه ثم نبش قبره واحرقت جثته من الغوغاء بالمغرب وكان فى ذلك انتهاء محنة ذلك الأديب العالم

---

(٤٢) الاحاطة فى اخبار غرناطة ص ٤٨ ــ ٥٥ كان ابن الخطيب سفيره فى تلك المصالحات •

(٤٣) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٨ ص ١٢٨ •

الكاتب الفليسوف علامة عصره ابن الخطيب (٤٤) وقد توفى السلطان الغنى بالله ولقى ربه وهو فى قمة مجده السياسى والدبلوماسى فى صفر سنة ٧٩٣ هـ / سنة ١٣٩١ م وجاء بعده ابنه « يوسف الثانى » الذى خلت أيامه من الحوادث الهامة فغدا عهده فاترا وترك أمر تدبير ملكه لرجله الأول « خالد الشعينى » الذى ولاه حجابته واستبد بالأمر دونه وقام فى البلاد هياج ونقار فعالج الحاجب أموره بقتل كل من يخرج على تعاليمه • فكان جزاؤه من جنس عمله حيث قتلته العامة فى طرقات غرناطة فى صفر سنة ٧٩٤ هـ (٤٥) وبعد اشهر قليلة مات يوسف الثانى فى شوال سنة ٧٩٤ هـ ثم آل الملك الى أبنه يوسف الثالث الذى كان ولى عهد أبيه ثم نحى منها فى ذات السنة • وجاء محمد السادس الذى امتاز عصره بالصلح المستمر بين المسلمين والمسيحيين وحفل عصره بالهدنة العسكرية بين مملكتى غرناطة وقشتالة • كما جدد أروقة المسجد الجامع وزاد فيه زيادات معتبره والعقد فى واجهه رواق القبلة يردان بقراميد مختلفة الألوان منقوشة بزخارف جميلة جليلة وفى سنة ٨٢٧ هـ توفى محمد السادس وبعدها سنة ١٤٢٣ م (٤٦) غدت البلاد الى العزلة بعد انشغالها ببأسها بينها وطوقت المملكة بحاجز كثيف من الخلافات التى تركت بصمات من الاضمحلال العنيف الذى أورث الأنحلال فى التصرفات والمعالجات •

سوء أحوال المملكة :

لم تعد المملكة — المسلمة — الى سابق فتوتها أبدا • وانما مال نجمها الساطع الى مشارف السقوط بعدما أوهنتها الخلافات والانشغال بمراتع اللذات والمتع فظلوا فى غيهم يعمهون • وترك الناس سبل

---

(٤٤) البستانى • دائرة المعارف • ترجمة ابن الخطيب ج ٥ ص ٧٧

(٤٥) المرجع السابق « غرناطة » ج ٦ ص ٢٤ •

(٤٦) نفسه ص ٢٥ •

الحضارة التي أطلت ناضرة زاهية مؤثرة على أوروبا التي كانت اذ ذاك موحشة مقفرة الا أن سنن الكون شملتهم — في ظلال غفرانهم — الى حتى النهاية المؤسفة بعدما عاش اسلافهم في غابر السنين في غضون التقدم والصلاح والعمران « وتلك الأيام نداولها بين الناس » .

ولتلخيص الموقف نقول : ان المسيحيين وجدوا في الأندلس ملكا مزعزعا . فسنحت لهم المخالفات والصراعات أكبر الآمال في الانفضاض بعد ان خلت السنون من حاكم مسلم قادر قوي « فأغاروا على غرناطة عام ١٣٧ هـ / ١٤٣٢ م فخربوا ونهبوا وأخرجتهم المقاومة وتابعتهم حتى أرقيدونه . وقاتلهم الأهالي حول أسوار غرناطة (٤٧) ثم قامت حرب أهلية بين أمراء المسلمين وبعض العنـاصر في الداخل استمرت خمس سنوات عجاف سفك فيهـا الدم الغزير ، واهلكت الاضطرابات الحرث والنسل ، وزاد الحالة سوءا ما كان من غارات القشتاليين الذين هدموا البيوت وحرقوا المزارع وافسـدوا المتاجر وهدموا الحصـون والقصور . ثم استولوا دون عناء يذكر على الرقيدونه وجبل طارق(٤٨) والجدير بالأسف ما آل اليه حال « ابن اسماعيل » سنة ٨٦٠ هـ / ١٤٥٦ م وهو سلطان على المسلمين في غرناطة ان يعترف بالخضـوع « لهنري الرابع » ملك قشتالة المسيحي . بل وان يقبل أن يحكم البلاد باسم هنري ويدفع له جزية سنوية تقدر باثنتي عشر ألف دينار ذهبي . واكرهه ملك قشتالة بان اطلق سراح ستمائة أسير وقعوا في يده أثنـاء اقتحام مدينة مالقة . هكذا فعل السلطان سعد بن اسماعيل النصري(٤٩)

---

(٤٧) دائرة المعارف جـ ٦ ص ٢٥ نشر في بيروت سنة ١٩٦٠م .

(٤٨) المرجع نفسه ص ٢٥ .

(٤٩) استانل لينبول . العرب في أسبانيا ص ١٩٢ .

الكفاح النهائى وسقوط المعقل الأكبر (غرناطة) :

أسلمت الكثير من أحداث تلك الآنة الى تردى خطير أدى الى منعطف سقوط ذلك المعقل الكبير الذى كان يعتز كل مسلم باسهاماته على الحضارة الأوربية الا انها ارادة الله • فعقب وفاة « ابن اسماعيل » جاء من بعده « على بن الحسن » وكان له زوجتان احداهما « عائشة الحرة » العربية ابنة عمه ورزق منها أبا عبد الله محمد • والأخرى • أزبيلا وهى أسبانية مسيحية وسماها الزهرة • وكانت الأخيرة اسيرة حبه وعطفه وقربها مكانا عليا هى وأولادها الأمر الذى أحفظ عليه زوجته المسلمة عائشة التى حرمت مع أولادها من محبته وعنايته وأدى هذا الموقف الى انقسام المجتمع الغرناطى الى شطرين فجانب يتعاطف مع أبى عبد الله وأمه • وآخر يؤثر « الزهرة » على من عاداها حتى قامت بينهم خلافات استخدمت فيها الاسلحة • فكانت تلك الحروب الداخلية سببا مباشرا فى اضعاف كيان مملكة غرناطة (٥٠) •

وقد انبثق من هذا الصراع ما عرف فى تاريخ الأندلس باسم نكبة « أبناء السراج » (٥١) وسببها المباشر كما تذكر الحوليات ما وقع من رجالهم الذين آثروا الميل الى جانب زوجته « عائشة الحرة » فى صراعها ضد ضرتها واتباعها فى البلاد فخشى الغالب بالله على أبو الحسن ان يقوى شأنهم فى التغلب فحنق عليهم فخطط فى الخفاء لمكيده

---

(٥٠) المرجع السابق ص ١٩٥ •

(٥١) ابناء السراج هو فى الحقيقة من العرب اوفدين على الأندلس زمن المستنصر بالله فى قرطبة ثم خرج العديد من أفراد هذه الأسرة العربية واتجهت الى غرناطة بعد اتيلاء المسيحيين على تلك المدينة الزاهرة • وفى غرناطة ارتفعت منزله أقطابها وأصبحوا من الملمين بشئون الادارة والاكفياء فى مدراج السياسة فى بلاط بنى الأحمر حتى أيام على أبو الحسن

التخلص منهم دفعة واحدة متاثرا بما وقع فى المشرق من نكبة البرامكة على عهد الخليفة العباسى هارون الرشيد • وخيوطها جميعا تتواصل فى القضاء على رجال بنى السراج جميعا • وقد كان فى مقدور السلطان أن يفعل ذلك بعد أن أعد وليمة كبيرة فى قصر الحمراء وأفرش موائده فى احدى القاعات • ورتب المخطط المحكم بحيث يدعو أفراد أبناء السراج على أنفراد وقور دخولهم يتلاقهم أعوان السلطان وجلاديه واحد بعد آخر حتى تخلص منهم تقريبا بطريقة الحذر الشديد الأمر الذى جعل كل الداخلين لا يعرفون مصير من سبقهم وتمت المأساة التى روعت مدينة غرناطة وصبغت صفحات هذا السلطان على أبو الحسن بنقطة سوداء تدمغ عمله الشنيع اللاأنسانى فكان مصير بنى السراج والبرامكة واحد مع اختلاف العصر (٥٢) •

وفى هذا الوقت كانت عوامل القوة والاتحاد قد برزت جلية بين مملكتى قشتالة وأرغونة بعد أن أقدم فرديناند أمير قشتالة على التزوج من ازابلا ملكة أرغونة سنة ٨٧٣هـ / ١٤٦٩م فقامت لهما مملكة مسيحية كاثوليكية تشمل الاقليمين معامع ليون • وكان الزوجان يضمران العداء الشديد للمسلمين وأظهرا التعصب الصارخ لأبناء دينهم وقوى عندهما التصميم على طرد المسلمين من غرناطة آخر معقل للاسلام بأرض الأندلس ، وانتظرا مليا حتى تمكنا من توطيد ملكهما ارتقابا للحظة الانقضاض على المسلمين وفق هذا المخطط الموضوع بدقة • وقد اتيحت لهما فرصة ثمينة للتحرش المباشر لم يدعاها تمر دون استثمار • ومرد ذلك « ان فرديناند بعث مندوبة الى غرناطة طالبا الضريبة المعتادة التى كان يدفعها المسلمون مصانعة للملك القشتالى وأبنائه ضمانا للسلم معهم الا أن أبا الحسن رد على رسل الملك «لقد

---

(٥٢) نفح الطيب جـ ٤ ص ١١٧ ، د• مرزوق قصر الحمراء ص ٧١

مات الملوك الذين قبلوا دفع الجـزية أما أنا فجعلت من دار الضرب مصنعا للسيوف وأسنة الرماح(٥٣) وما لبث الغالب بالله أبو الحسن أن قاد جنده ليلا الى قلعة الصخرة الحصينة ودخل مدينة الزهراء(٥٤) بغته واستولى عليهما بعد أن قتل الحراس والجند الذين على ابوابهما وفى داخلهما ، وقد جر على أبو الحسن بذلك العمل على نفسـه وبلاده الشر الكثير حتى علق أحد الشيوخ قال : ويل لنا فلسوف تسقط انقاض الصخرة فوق رؤوسـنا » وأدرك أهل غرناطة تلك العـاقبة وتواتر توجسهم من هجوم وهم فى ضعفهم يزيل ملك المسلمين من الأندلس(٥٥) وفعلا هاجم القشتاليون قلعة الحامة (٥٦) ودخلوها ونهبوا المتـاع وقتلوا الرجال ثم اجتـاحوا المدينة نفسـها « حمـاة أو الحـامة » واستباحوا لجندهم قتل النساء والأطفال ودخلوا البيوت والمسـاجد دون مراعاة لعرف أو حرمة وحاول « الغـالب بالله أبو الحسن » أن يسترجع المدينة والقلعة وكاد أن يصل الى غرضـه لولا تلك الأحداث الجسام التى جدت فى مملكته فى غيابه حيث وثب ابنه أبو عبد الله على الحكم بعد خروجه مع أمه عائشـة الحرة وأخاه من سـجنهم ببرج قماش • وحملتهم الجياد واستولوا على الحكم واجلسوا أبا عبد الله مكان أبيه بواسـطة الجند والاعوان الموالين لهم ، وعنـدما علم على أبو الحسن بهذه الأنباء عاد مسرعا الى غرناطة وعند وصوله وجد أن ابنه قد احتل قصر الحمراء وأقام نفسه ملكا فخرج السلطان خفية كما

---

(٥٣) المقرى المرجع السابق جـ ٤ ص ٥١٢ •

(٥٤) مدينة الزهراء من انشاء الخليفة الأموى الناصر لدين الله غربى قرطبة فى سفح جبل لوبها حصن مراد وكورة غافق •

(٥٥) لينبوك مرجع سابق ص ١٩٦ •

(٥٦) قلعة الحامة فى منعرجات المسالك المؤدية الى غرناطة بالتقائها مع مالقة ورنده •

دخل ثم قصد مالقة وكان يحكمها باسمه أخوه أبو عبد الله الزغل ثم ذلك سنة ٨٨٧هـ / ١٤٨٢م(٥٧) .

ولقد استطاع الزغل أن يهزم القشتاليين الذين أرادوا ان يقتحموا مدينة مالقة سنة ٨٨٨هـ / ١٤٨٣م وردهم مدحورين . وبعدها نزل أبو الحسن لأخيه « أبى عبد الله محمد » عن ملك غرناطة ، فسار اليها بسائر عسكره وعبثا حاول الزغل أن يصل الى اتفاق مع ابن أخيه المتمكن من العرش . فقامت حرب داخلية دامية بينهما استفاد منها القشتاليون — والعرب فى حماس صراعهم — فى اخضاع جملة مناطق اسلامية لصالحهم مثل رندة ومالقة وأجبروا أهل تلك البلاد على مغادرتها وقتلوا من صمد منهم ، أما النساء والأطفال والكبار فقد استخدموا معهم أساليب شنيعة فى اذلالهم(٥٨) .

ولما اشترك الزغل فى حرب مع المسيحيين ضد ابن أخيه أبو عبدالله الى فتح ما بقى من مدن تخضع للزغل وعلى الرغم مما أظهره حاكم مالقة المسلم الزغل من ضروب الشجاعة والكفاية العسكرية التى برزت فى حربه ضد القشتاليين من قبل الا أنه شعر بحرج موقفه أخيرا بعد أن أوهنت جنده كثرة الحروب . فسأل بنى مرين بالمغرب المساعدة فلم يجيبوا طلبه . وأثناء ذلك جاءت قوات قشتالة فحاصرت جنده وضيقوا عليهم الخناق حتى كاد أهل غرناطة أن يموتوا جوعا . وعندئذ سلمت مالقة على شروط ما لبث المسيحيون أن نقضوها ونهبوا البيوت والمتاجر وطردوا الناس خارج المدينة وسلمت الجامعات الاسلامية . وسمح لهم بالرحيل الى أفريقيا — المغرب الأقصى — ٨٩٣هـ / ١٤٨٧م(٥٩) .

---

(٥٧) المقرى مرجع سبق جـ ٤ ص ٥١٤ .
(٥٨) لينبول : مرجع سابق ص ١٩٨ ، ١٩٩ .
(٥٩) نفح الطيب جـ ٤ ص ٥١٦ .

بعد أن رحل الزغل وحامياته الحربية بأسرهم الى المغرب • وفى أعقاب الأحداث المؤسفة سقط العديد من الحصون والمدن الاسلامية بيد الأسبان مثل بسطة والمرية ووادى آش وقد قام أبو عبد الله محمد « ابن عائشة الحرة » بحكم غرناطة بموافقة فردناند • الا أن هذا الحاكم لم ينعم بالهدوء والتمتع بحصيلة الثقة التى أولاها اياه ملك قشتالة • وعندما تيقن من ضعف شأنه بعد رحيل عمه الزغل الى المغرب وتأكدت الأنباء بموت أبيه على أبى الحسن هذا فضلا عن موت على العطار وسيف الدين ينغش وحامد الثغرى من أبطال المعارك السابقة • طلب فردناند من حاكم غرناطة أن يسلم مدينته دون قيد أو شرط الا أن الرجل رفض هذا التسليم وساعده المجاهدون المسلمون الذين صمموا على الصمود أمام هذا التحدى لآخر رجل(٦٠) وأمام هذا الاصرار الغرناطى حشد ملك قشتالة مجموعة فرسانه ومقاتليه بأعداد وافرة وهاجم بهم غوطة غرناطة وأحرقها ليؤثر فى تحركات جند المسلمين • الا أن المقاومة الباسلة بقيادة موسى بن أبى الغازان حاربت بشرف واقدام وكافحت بضراوة حتى لا تقع مدينتهم فريسة لأعدائهم • ولم يفت فيهم هدم البيوت والقتل والسبى • وانما واصلوا تطهير احيائهم من كل جندى أسبانى ، وانسحبت قوات فردناند الا أنه كان خلاصا مؤقتا(٦١) •

جمع ملك قشتالة قوته لتكرار المحاولة سنة ٨٩٦هـ /١٤٩١م فحاصر غرناطة مدة سبعة أشهر متصلة وضرب الملك مخيما بالقرب من مداخل المدينه أسماه « سانتافى » ودوت صيحة الحرب من الجانبين ودارت المناوشات ونشبت المعارك الفردية • الذى ساعد المسلمين

---

(٦٠) المرجع السابق ص ٥١٨ •
(٦١) المقرى جـ ٤ ص ٥٢٨ •

على الثبات والمقاومة استطاعتهم الحصول على المؤن من الحبوب والماشية عن طريق « شعاب سيرانفادا » وان الجند البواسل كانوا لا يهابون تلك الجموع الجرارة • وكان هدفهم اقتحام مخطط فرديناند وازبيلا • وكان قتالهم فى الغالب للمتتبع لحوادثهم : كان مبارزة النصر فيه على الدوام لفرسان المسلمين • ولما رأى الملك القشتالى أنه خسر خيرة قواده فى الحروب والحصار • صمم فى ربيع عام ٨٩٧هـ ١٩٢١م على الهجوم العام ومحاصرة غرناطة من جميع جهاتها حتى طريق « سيرانفادا » المفتوح • فقلت بسبب ذلك الحصار الاقوات واشتدت الأزمة على الناس من داخل المدينة • وشعر الكل بالجوع ولم يجدوا أمامهم سوى الجلود واوراق الشجر لبكون لهم طعاما • وسط هذه الظروف القاسية • وجد قواد غرناطة أن لا طاقة لهم على المقاومة •

فأرسل الوزير أبو القاسم عبد الملك للموافقة على التسليم والرضوخ لأمر الصلح وتمت مفاوضة الأسبان ووقع الأعيان على المعاهدة وقبلوا توثيقها على شروط وضعت فى اواسط عام ٨٩٧هـ/١٤٩٢م(٦٢) •

وأهم ما جاء فى نصوص الاتفاق المبرم والذى خط فى منشور عام وزع على الاطراف فى مجلس التسليم وكانت بنودها الموضوعة لا تخرج عن :

(ا) ان يقدم ملك غرناطة ووزرائه وقواده والفقهاء وأهل غرناطة عامة الطاعة لفرديناند •

(ب) يتعهد القشتاليون بعدم الاعتداء على أرواح واملاك وسيوف وخيل المسلمين •

---

(٦٢) المرجع السابق ج ٤ ص ٥٢٩ •

(ج) أن يسلم المسلمون مدينتهم خلال شهرين ولهم تلك المدة أن يخلصوا أنفسهم بالقوة .

(د) يمنح ملك قشتالة أبا عبد الله جزءا من اقليم غرناطة تعويضا له .

(هـ) ان يعبر الى افريقيا — المغرب — من يود من المسلمين فى مراكب المملكة القشتالية فى بحر ثلاث سنوات دون أن يدفعوا مقابل ذلك دانقا . وقتما شاءوا .

(و) الا يتدخل المسيحيون فى أمر الاسلام والمسلمين : فلا يهدموا جامعا ولا يمنعوا الناس من الصلاة .

(ز) ان لا يجبر المسلم على التنصر .

(ح) ان يطلق سراح الاسرى المسلمين .

(ط) ان يحكم العرب جماعة منهم ولا يدفع المسلمون الا جزية واحدة .

(ى) ان يسير المسلم آمنا على نفسه فى مدن قشتالة ودون أن يميز بشارة تبرز هويته(٦٣) .

واتفق المسلمون على هذه الشروط . الا قائدهم « موسى بن أبى العازان » فانه رفض تلك الخطوة واعتبرها خذلانا ولم يلق سلاحه وصمم على الموت فى ميدان الكرامة على العيش فى خلال تلك الشروط الاستسلامية ولما لم يوافقه أحد من الفرسان الذين كانوا يوما ما «مغاوير ونجوم اقدام» ألقى بنفسه فى يم شتيل وجرفه التيار العاتى لفهر غرناطة الشهير الى حيث مصيره المجهول . وخرج بنو الأحمر من القصر الذى شهد أمجاد بلادهم كما خلت القاعات والأروقة

---

(٦٣) المقرى نفح الطيب جـ ٤ ص ٥٣٠ — ٥٣١ .

والساحات من الأمراء والأميرات يجرون أذيال الفشل والخسران ٠٠وفى ربيع سنة ٧٧٩هـ/ ٣ يناير سنة ١٤٩٢م سلمت مدينة غرناطة وسقط الهلال واقيم الصليب على بروج المراقبة فى الحمراء (٦٤) أما أبو عبد الله فقد خرج من غرناطة التى شهدت عظمة آبائه من فرسان العرب المسلمين وفى جعبته متناثر الدنانير التى يمكن أن تملأ يديه — ثمانين ألف ذهبية — ولكنه نال قبض الريح حيث مضى الى افريقيا وألقى آخر ملوك غرناطة من المسلمين على ملكه وقصره وعرشه الذى خلى من بطانته وحراسه ٠ آخر نظره ٠ ولم يشفع له التاريخ تقصيره فى حق دينه أمام اعدائه ٠ ولن تغسل دموعه المنهمرة عارا لحقه يوم أن سلم بلاده طعمة سهلة للغزاة المتربصين ٠٠

ألم تقل له أمه عائشة الحرة :

ابك كالنساء ملكا مضاعا لم تحافظ عليه مثل الرجال

وقد أطلقوا على تلك الربوه التى شهدت حر البكاء وآلام الندم « بزفرة العربى الأخيرة »(٦٥) وانقضى عصر الاسلام بالأندلس وطويت صفحة وارفة الظلال مع غياب شمس الحضارة والعلوم والفنون العربية التالدة ٠ وللاسلام العظيم « حكاما وقادة وعلماء وبسطاء

---

(٦٤) وقد أقيمت محكمة التحقيق (التفتيش) قضائها من الجلادين القساة الذين لم يراعوا حقا ولا ذمة وكان هدفها تصفية حسابات بالقهر والغلبة والظلم وقد بدأت عملها فى مدينة اشبيلية عام ١٤٨٠م وقد فكلوا بالمسلمين واجبروهم على اعتناق المسيحية وقتلوا الرجال وأحرقوا المساجد التى التجأ اليها النساء والأطفال وقد فر العديد من المسلمين من هذا الظلم فاس وتركيا ومصر وأشعلت النيران بأمر هذه المحكمة فى بيوت المسلمين بقرطبة واشبيلية ٠

(٦٥) لينبوك ٠ العرب فى أسبانيا ص ٢٠١ ، ٢٠٢ ٠

حتى الأطفال وقت ادراكهم من ساحق السنين تعزيه فى مصابه بما كان من عاقبة روما ومصير الاغريق • وممالك سبأ ومعين والغساسنة والمناذرة والله وارث الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين(٦٦) •

دكتور / محمود شرف الدين

(٦٦) يحق لنا أن نستلهم قول الحق فى مجامع كلماته التامات عبرة للأجيال على مختلف الأعصر المتلاحقة « قل اللهم مالك الملك توتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شىء قدير » • سورة آل عمران آية ٢٦ •